Issn:2437-0967 مجلة اللغة الوظيفية المجلد9،العدد1 2022

الآخر في الرواية الجزائرية بين التقديس والتدنيس "جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي و"خرافة الرجل القوي" لبومدين بلكبير أنموذجا

The other in the Algerian novel between sancticaion and desecration- "a bridge of revelation another of nostalgia" by zahour ounessi and "the superstition of the strong man" by boumediene belkbir as a model-.

محمد جعيدي [*] (1)

جامعة يحيى فارس المدية، (الجزائر)

djaidi.mohammed@univ-medea.dz

مولاي مدقدم (2)

جامعة يحيى فارس المدية، (الجزائر)

Moulaymed.2018@gmail.com

مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية/ جامعة يحيى فارس المدية الجزائر

تاريخ الإرسال:2022/01/15	تاريخ القبول:2022/03/27	تاريخ النشر:2022/06/10

الملخص

أراد الروائيون الجزائريون مجابهة الخطاب الغربي بأفكار منبثقة من حركة الوعي الثقافي التي عرفتها الرواية الجزائرية، بتفكيك الغرب من وجهة نظر مضادة لما يسمى بالخطاب التنويري، الذي يتمثل دوره في محاولة إقناع الشعوب بأنها بحاجة للحماية والتحرر، وتكريس الصورة السلبية عن الشرق والتذكير بهيمنة الغرب وتفوقه في ظل بروز علاقات السلطة، والمعرفة، والقوة، وفي خضم هذا التوجه نتلمَّس تباينا في النَّظرة التمثيلية للآخر، لذا تمَّ اختيار عملين أدبيَين يحملان نظرة مختلفة في هذا الصَّدد، وهما روايتَي "خرافة الرجل القوي" **لبومدين بلكبير** و"جسر للبوح وآخر للحنين" **لزهور ونيسي** بغرض بيان التَّوجه الذي رسمته الروايتين، والخروج بصورة مبنية على عرض وجهات النَّظر المتباينة، ومن ثَمَّ المقاربة بينها من خلال الغوص في بنية شخصياتها والفضاءات التي وُظِّفت فيها والعلاقات الناتجة عن هذه التَّفاعلات.

الكلمات المفتاحية: الآخر؛ الرواية الجزائرية؛ التمثيل؛ التدنيس؛ العقلانية.

[*] محمد جعيدي

Abstract:
The Algerian novelists wanted to confront the Western discourse with ideas emanating from the cultural awareness movement that was known in the Algerian novel, by dismantling the West from a counterpoint to the so-called Enlightenment discourse, which role is to try to convince peoples that they need protection and liberation, and to consolidate the negative image of the East and to remind the dominance and supremacy of the West in the emergence of relations of power, knowledge, and strength, in the midst of this trend we feel a contrast in the representative view of the other, so two literary works with a different view were selected in this regard, namely, the two novels "The Strong Man's Legend" by Boumediene Belkbir and "A Bridge for Revelation and Another for Nostalgia" by Zohour ounissi. In order to clarify the orientation drawn by the two novels, and to come out in a way based on the presentation of the different points of view, and then to approach them by diving into the structure of their characters, the spaces in which they were employed, and the relationships resulting from these interactions.
Keywords: The other; Algerian novel; the acting; desecration; rationality.

مقدمة:

تنطلق الرواية الحديثة من خلال طرح أسئلة متعلقة بالذات، والهوية، والآخر، وهذا في محاولتها لتمثيل العلاقات التي تربط الشعوب ببعضها البعض، ما يفسر الانفتاح الحاصل على جميع الأصعدة، فقد مكنت الأعمالُ الأدبية الشعوبَ من الاطِّلاع على ثقافات مختلفة، وكذا وضعها في سياقاتها التي قُدِمت ضمنها هذه الأعمال، وعندما نتمعن في الرواية الجزائرية نجدها تنحو مسارات عدة، وتخضع هذه الاتجاهات إلى اعتبارات من أهمها التماشي مع الأوضاع السائدة التي تتزامن مع كل مسار اتخذته، والملاحظ كذلك أن الخطاب الروائي كان في غالب الأحيان مبنيا على ثنائيات متقابلة، على غرار(المُستعمِر، المُستعمَر)، (المُسلم، الكافر)، (الحليف، العَدُو)... كل هذه الثنائيات وغيرها يمكن تصنيفها في خانتي (أنا) و(آخر) ضمن نسق تفاضُلي يُغَلِّب الغربي على الشرقي (وحيد، 2018، صفحة 19) ولقد أمعنت الرواية الجزائرية في تصوير كل من الأنا والآخر على عدة اعتبارات، كانت في معظمها من منطلق ثقافي حضاري، ونجد أن الرواية في من هذا المنظور اختلفت في تصوير الآخر، فهناك من جعل من الآخر عدوا، وهناك من اعتبره ندًا، وهناك من اتَّخذه مثالا يُحتذى به.

الأمر الذي يدفعنا إلى البحث في كيفية تصوير هذا الآخر من قِبَل الروائيين الجزائريين، وللوصول إلى نتائج مُتَّزِنَة، ارتأينا أن نوسع دائرة التحليل لتشمل نموذجين روائيين حملا نظرتين متباينتين، الأول هو رواية "جسر للبوح وآخر للحنين" لزهور ونيسي، والثاني تمثَّل في رواية" خرافة الرجل القوي" لبومدين بلكبير، وقد ركزنا الجهد على الكشف عن التصوير الذي يرمي كل نموذج إلى تمريره من خلال توظيف الشخصيات وتحريكها في الفضاء المكاني والزماني المرسوم لها، مع بيان السُّبل التي سلكها كل روائي في الدفاع عن الصورة التي يريد رسمها في مِخيال القارئ.

باعتبار الدِّراسة تتناول موضوعا يتَّسم بالبعد الثقافي، ويرتبط في نفس الوقت بجنس الرِّواية، فلابد من اتخاذ منهج يمزج بين المقاربة الثقافية والتحليل السَّردي، بغرض مقاربة العملين اللذين بين أيدينا، وكذلك لنتمكن من الإجابة عن الإشكاليات التالية:

– كيف صورت الرواية الجزائرية الآخر من خلال النموذجين المختارين؟.

– ما هي الاستراتيجيات التي اعتمدها الروائيان في إقناع المتلقي بالصورة التي يريدان رسمها؟.

2. الآخر بعيون زهور ونيسي في "جسر للبوح وآخر للحنين":

يعمد الروائي عادة إلى بناء أحداث مرتبطة بشخصيات يكيفها لخدمة البناء العام للعمل السَّردي، وعندما نتحدث عن الشَّخصية في العمل الروائي يجب الإشارة إلى أنه حتى اختيار الأسماء يخضع إلى المساءلة النقدية، ولا يمكن اعتباره عبثيا، وهو ما يحيلنا إلى ضرورة الاهتمام بالشخصية في تحليل أو بناء أي رأي نقدي حول أي عمل سردي فـ" الأشخاص في القصة مدار المعاني الإنسانية، ومحور الأفكار والآراء العامة. ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت إلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي" (محمد، 1997، صفحة 526) علينا إذن أن نُسَلِّط الضوء على طريقة توظيف العملين اللَّذين بين أيدينا للشخصيات، وكذا دراسة الارتباط الموجود بين الشخصية والفضاء الذي زُرِعت فيه.

أول ما لمسناه في روايتي جسر للبوح وآخر للحنين، هو تأثيث الرواية بمجموعة من الشخصيات التي تمَّ توظيفها كلٌّ حسب الغرض المراد منها، وسنذكر بداية أهم الشخصيات التي وُظِفت في نظرنا لخدمة توجيه القارئ نحو رأي فئة معينة، لصنع ثنائية الأنا الجزائري والآخر الغربي عند معظم شخصيات الرواية. اختارت زهور ونيسي شخصية كمال العطَّار كشخصية رئيسية في الرواية، وحمَلتها دلالات مختلفة، ومتفاعلة مع معظم الشَّخصيات الواردة في المتن الروائي، وسنعود إلى أهم الآراء المبثوثة في هذه الشخصية بعد أن نعرض أهم الشخصيات المشاركة في تشكيل الاتجاه العام الذي تصبو الروائية إلى إيصاله للقارئ، الشخصية الثانية التي سنجد لها حضورا متكررا في صفحات الرواية هي راشيل الفتاة اليهودية التي أحبها كمال، وجارته نفيسة التي تزوجها إرضاء لأمه وأخت صديقه المقرب مراد، ورفيقه في الجهاد، ويضاف إلى هذه الشخصيات رابح العطار والد كمال وعمه محمد، وزوجته الفرنسية جيزيل، وابنا عمه حكيم وكريم، وعتيقة أم مراد، وأبوه، وخاله.

هذه في المجمل الشخصيات التي تستحوذ على الثنائية الإيديولوجية التي تحاول الرواية إبرازها لنا، وهي نظرة كل شخصية من هؤلاء إلى الآخر، باعتباره مشاركا له في الوطن، أو العمل، أو حتى سقف البيت، وتجدر الإشارة هنا إلى جزئية مهمة وهي أن الروائية وظفت كل شخصية من هذه

الشخصيات لتمثيل فئة معينة، أو رأي معين، ليس ثابتا في كل المواقف التي تواجه تلك الشخصية، وهو ما أورده عبد الملك مرتاض في حديثه عن الشخصية المدورة والتي وصفها بـ "التعقيد وبأنها لا تستقر على حال، ولا يستطيع القارئ أن يعرف مسبقا ما ستنتهي إليه، لأنها متغيرة الأحوال فهي تحب وتكره، تؤمن وتكفر تفعل الخير والشر" (مرتاض، 1998، صفحة 89)، هذا ما نجده ممثلا في شخصية البطل كمال العطار ومحبوبته راشيل اليهودية الديانة، وهنا ندخل في معترك التمثيل للثنائية التي تتسم بالوسطية في الطرح، والتوازن في التفكير، في المقابل نجد أم كمال التي تقف ضد هذه العلاقة مدعومة بجملة من الظروف المحيطة(الدين، المجتمع، الأب، السلطة...)، وهي تعبر في كثير من المرات عن رأيها، وفي كل مرة تستند إلى إحدى هذه المبررات التي ذكرناها سابقا، حيث تصرح بعدما أخبرها ابنها كمال العطار بسر حبه لراشيل اليهودية" يهودية يا كمال، ما الذي أصاب الدنيا، ولماذا تختارني هذه المصيبة دون الأمهات جميعا؟ إنها عين حاقدة حاسدة، والله العظيم..." (ونيسي، 2007، صفحة 35) تعبر الأم هنا عن صدمتها الكبيرة عند سماعها لسر كمال الخطير – حسبها– الذي باح به لها، وتستمر في التعبير عن صدمتها ورفضها بالاتكاء على المرجعية الدينية، بعد سكوتها لبرهة "نصرانية ولَا يهودية، إن اليهود لعنهم الله في كتابه العزيز، أعداؤنا وأعداء نبينا ودِيننا منذ الأزل، وإلى أبد الآبدين..." (ونيسي، 2007، صفحة 35) ونجد الأم هنا تنطلق من الفكرة الدينية العامة التي تسود المجتمع الجزائري عموما وهي معادات اليهودية وتصويرها باعتبار " أن اعتقاد هذا التفاوت كما يتحقق في الفكرة الدينية يتحقق في غيرها كاعتقاد أمة أنها أرقى عنصرا، وأنبل مولدا وأحق بالزعامة العالمية من سائر الأمم..." (دراز، 2006، صفحة 53) نجد أم كمال بموقفها هذا تحيلنا إلى أن الإسلام يفرض عليها أن تكون في موقف مضاد لليهودية من منطلق العصبية الدينية، رغم أن الدين الإسلامي يسمح للمسلم بالزواج من أهل الكتاب، لكن الأم كما أسلفنا تنطلق من العصبية الدينية لا من تعاليم الدين، وهنا يمكن أن نقول بأن الروائية أرادت أن تبرز من خلال شخصية الأم التي اختارت لها اسم عتيقة تلك الفئة التي تتخندق وتتحصن بالأفكار العتيقة والقديمة والرجعية، وهي فئة تتواجد بكثرة في حقيقة المجتمع الجزائري آنذاك، تلك الفئة التي لا تعرف من الدين إلا بعض الطقوس التي هي في معظمها عادات دينية متوارثة من الأجداد، أو مزروعة من قِبَل المُستعمِر عمدا لتبقى تسري في أذهان الشعب الجزائري، حتى بعد الاستقلال.

تستمر الروائية في تمثيل الأبعاد الإيديولوجية للشخصيات والإشارة إليها في الواقع، وهنا تعود بنا إلى كمال العطار الذي يمثل لنا الصورة الوسطية المعتدلة والتي تحاول من خلال التركيب بين من يغلو في تمجيد الآخر، وبين من يبالغ في تدنيسه حيث يقول" لماذا يخلطون بين الأمور هكذا، ألسنا بشرا بقلوب وعقول، قبل أن تصنفنا الوراثة إلى شعوب وعقائد وقناعات؟" (ونيسي، 2007، صفحة 50) يلجأ

كمال لتحكيم العقل والمنطق في تفسير الحالة التي وُضع فيها، حيث تقف أمه وأبوه والمجتمع في وجه حبه للفتاة اليهودية، ما يجعله يستغرب موقفهم عندما عاد به الزمن ليتذكر يوم ختانه الذي ترك في نفسه أثرا بالغا بسبب المغني اليهودي الذي أحيى حفْلَ ختانه" وتذكر يوم حفل ختانه وهو وحيد والدَيه، عندما أحيى الحفل أحد أشهر الموسيقيين في المدينة الشيخ ريمون اليهودي جارهم في حي سيدي جليس وكم لعب الأطفال مع بعضهم" (ونيسي، 2007، صفحة 52) كمال في هذا الموقف كأنه يطرح تساؤلا مفاده: ما الذي تغير في حالنا؟، وتحاول الروائية هنا الإشارة إلى أن المتمعِن في المجتمع الجزائري يجد كثيرا من التناقضات، التي نلمسها عندما نطلق العنان لعقلنا ونسمح له بالتفكير دون القيود التي ترسبت لدينا عبر فترات زمنية ميزها الركود الفكري، خاصة في فترة ما بعد الاستعمار مباشرة.

لقد كانت الجزائر آنذاك في مرحلة بناء اقتصادي، وفكري للفرد الجزائري وليس من السهل التخلص مما أمعن المستعمر الفرنسي في زرعه طيلة فترة الاستعمار التي زادت عن القرن من الزمن، وبالعودة إلى الرواية نجد أن أم كمال لم تبن موقفها من راشيل (الآخر) على البعد الديني فحسب إذ تجاوزته إلى البعد القومي حين تصرح:" ألا تدري أنهم ينسبون الطفل لأمه، لأنها التي حملته وجرت دماؤه مع دمائها ووضعته وأرضعته؟ ومن لا أم يهودية له عندهم، لا أصل له أبدا، حتى لو كان أبوه الحاكم" (ونيسي، 2007، صفحة 74)، تحاول الأم تبرير موقفها الرافض لراشيل اليهودية بكل الطرق، لأنها تنطلق من نسق إيديولوجي لا يمكن المناقشة أمامه لفكرة كهذه، فالفرد اليهودي في نظر هذه الفئة التي تمثلها الأم، لا يجب التعامل معه قطعا، وتنحاز هنا إلى كونها تختلف عن اليهودية في الأمة التي تنتهي إليها، ولمفهوم الأمة دلالات عدة" الأمة هي ظاهرة اجتماعية تتلخص في وجود جماعة من البشر يسود بينهم روح الترابط والاتحاد وتجمعهم الرغبة في العيش المشترك فوق إقليم معين" (ركح، 2011، صفحة 43) من هذا المنطلق يبرز الصراع بين الأنا والآخر باعتبار أن التموضع بين (أنا) و(آخر) يُبنى على مجموعة من الاعتبارات من أهمها الاعتبار القومي.

تواصل الرواية توظيف الشخصيات كلٌ بموقف يخدم وجهة نظر فئة موجودة فعلا في النسيج المجتمعي الموجود في الجزائر خلال الفترة التي جرت خلالها أحداث الرواية، وهي مرحلة ما بعد الاستعمار التي يمكن أن تستمر أحكامه إلى يومنا هذا، وهنا نشير إلى شخصية خال كمال الذي استُعمِل في صف المُدافع عن حب كمال وراشيل، وهو يعتبر أحد الشخصيات التي اِستُعملت لتأييد فكرة الاعتدال وتحكيم العقل في أخذ الأحكام وعدم الانسياق خلف الأفكار البالية التي تمجد الأنا رغم كل عيوبه، وتحتقر الآخر رغم ما يمكن أن يحمله من حسنات إذ يقول الخال:" ولكن ما المانع أن يتزوجها إذا هي أسلمت؟ هكذا قال خاله لأمه، لكن الأم ترد بنفي قاطع" (ونيسي، 2007، صفحة 45) تؤسس

الروائية هنا التصادم بين القطبين اللّذين يمثل كل منهما موقفا مضادا للآخر، وهذا الحوار الذي يمكن أن نرصده في الرواية بين هذه الأقطاب، يمكن أن نُرجعه إلى قصدية ترمي إليها الروائية هنا وهي محاولة الإشارة إلى أهمية الحوار للوصول إلى أرضية تفاهم بين الأنا والآخر، حيث تسعى إلى التواصل بين الأم التي تمثل الرأي المتعصب، والخال الذي يمثل الرأي المتفهم الوسطي، وهذا لتجاوز التشويه المعتمد للتصوير، وكذا النمطية الموروثة لدى المجتمع الجزائري في النظر لكل ما هو آخر، هذه الصور التي استُمدت من التاريخ والسياسة والدين وتراكماتها" صحيح أن الخيال الجمعي الذي يسهم، بالإضافة إلى عناصر أخرى في تشكيل الصورة، يستمد بعض ملامحه وأدواته من التاريخ! بشكل دائم، إذ كثيرا ما تكون نتائج وأفكار وأوهام تشوه الواقع إلى حد ما" (حمود، 2010، صفحة 25).

ما نلاحظه هو أنه تقريبا كل الأحكام التي تبنيها الأم ومن يساندها في نظرتها مبنية على نمط موروث ومترسب لدى مجتمع بأكمله، وهو ما تؤكده المواقف التي بُنيت على هذا الأساس في الوقوف في وجه حب كمال لراشيل، خاصة من الأم التي لا تسمح بالنقاش في هذا الموضوع، لأنها قضية مبدأ لا يمكن النقاش حولها أصلا.

بعد الغوص في شخصية الأم التي وجدنا أنها تبني أفكارها على خلفية دينية، وتاريخية وقومية، وسياسية، ننتقل إلى نمط آخر من الشخصيات التي تعتمد اعتبارات أخرى في بناء الموقف، إما المعادي الضِدي، أو المُحابي المُنصهِر في الآخر، أو الوسطي المعتدل، وقد وجدنا نماذج من كل هذا في هذه الرواية، نشير هنا إلى فكرة تشكيل الموقف عن الآخر لدى الشخصية من خلال تقييمه لنفسه ونظرته للأنا، لأن "الأديب ينطلق من مشكلات قومه وهمومه، فالصورة التي يرسمها الأديب للآخر الأجنبي تنبع من مشكلات قومه ومن نظرته لنفسه لذلك يمكن الإقرار بأن تصوير الآخر ينبع أساسا تلبية لحاجات نفسية قبل كل شيء (حمود، 2010، الصفحات 16-17) لا شك أن كل موقف يتبناه أي شخص ينبع من نفسه أولا، ومن انتمائه لجماعته ثانيا، لكن هذا يتجلى أكثر في رسم صورة الآخر وأخذ مواقف حوله، إذ نجد كمال يصرح بأن قومه (العرب) ليسوا بذلك القدر من الكمال والمثالية" رآهم يتلقون التاريخ بإهمالهم، يختزلونه، يشوهونه عندما لا يُرضي أمزجتهم أو قناعاتهم السياسية والفكرية، يحرفون المعالم الحضارية فقط لأنها رمز لمرحلة أو زمن لا يلائمهم ولا يستجيب لغاياتهم" (ونيسي، 2007، صفحة 8) يرسم كمال هنا صورة مشوهة لقومه، ليبني على أساسها المواقف التي يتخذها في الأحداث التي تواجهه، خاصة في قضيته المحورية، هي علاقته براشيل.

من هذا المنطلق تذهب الروائية بالعديد من الشخصيات نحو النظر إلى الأنا بعيون الآخر أو النظر للآخر من خلال تنميط الأنا، فاحتقار الأنا لنفسه ينتج عنه احتقار الآخر، وفي كثير من الأحيان

يجعلنا نبحث له عن عيوب، أما النظرة التَّقديسية للأنا فيَنتُج عنها نظرة تعالٍ على الآخر، أما بالنسبة للنظرة السَّوية فتجعلنا نصور الآخر تصويرا عقلانيا مبنيا على أسس منطقية، وهو ما تحاول زهور ونيسي الوصول إليه من خلال منح الكلمة للشخصيات التي تمثِّل هذا الوعي الفكري في تصوير الآخر، إمَّا بمنظور سلبي أو إيجابي" إننا نقيم أنفسنا من منظور الآخرين، نحاول فهم اللحظات المقومة لوعينا ولكنها تظل خارجية بالنسبة له **transgredient** وأن نأخذ هذه اللحظات في حسابنا من منظور الآخر" (صالح، 1996، الصفحات 175-176) نخلص إلى أنه باعتبار الموضوع الذي ندرسه ليس شأنا داخليا أحادي الجانب، فلا يمكن إغفال دور الآخر في تحديد ورسم أي فكرة أو وجهة نظر يعتمدها، فكل ما تذهب إليه شخصيات الرواية من مواقف يكون مرتبطا بشخصيات أخرى تحمل اختلافا وتباينا في وجهة النظر، وهذا مرده إلى محاولة الروائية إقناع القارئ بطريقة غير مباشرة، لتوجيهه نحو بناء صورة معتدلة تجاه الآخر، ويمكن أن تنسحب هذه النظرة على جميع أشكال القناعات الفكرية، إذ أننا لو بحثنا في تراثنا القبلي لوجدنا فكرة الآخر مجسدة في بنائه الاجتماعي" لو عدنا إلى أكثر التركيبات الاجتماعية طبيعية وبساطة، أي القبيلة، لوجدنا الآخر فيها مكون من مكوناتها البنوية. يقول المثل البدوي أنا ضد أخي، وأخي ضد ابن عمي، أنا وأخي وابن عمِّي على الغريب" (لبيب، 1999، صفحة 108) على اعتبار الجذور القديمة للنسق الفكري العربي في تصنيف الأشخاص من منطلق أنا وآخر، لذا يمكن تحليل شخصيات هذه الرواية من هذا المنطلق.

لقد عرضنا لجملة من الشخصيات التي ساندت كل منها وجهة نظر مختلفة عن الأخرى، مساندة كانت أو مخالفة، نستكمل بالإشارة إلى أن الآخر كذلك حاضر بموقفه، فتارة نجده ينظر للأنا الجزائري بتعالٍ وتارة أخرى نجده سويا معتدلا حيث نمثل لهذا براشيل اليهودية، عندما طرح عليها كمال فكرة الدخول في الإسلام، ليتمكن من تقديمها لأمه على أنها فتاة مسلمة، وأنها تنصلت من يهوديتها وبذلك توافقه على الزواج منها، عندها قابلته بالرفض قائلة" إنك تحلم يا كمال، هل يمكن أن أترك ديانتي من أجلك؟ ولماذا لا تفعل ذلك أنت؟" (ونيسي، 2007، صفحة 97) يحارب كمال من أجل حبه، ويعتقد أن راشيل ستوافقه في كل ما سيذهب إليه فيما يتعلق بمستقبل علاقته بها، لكنه يصطدم في نهاية المطاف بأن راشيل ورغم حبها له، لا يمكن أن تتخلى عن ديانتها ومعتقداتها، لا هي ولا أهلها، وهذا ما يجعل كمال يعيد النظر في نظرته للآخر، ويجعلها معتدلة بعدما ظهر في بعض مواقفه وتصريحاته أنه لا يتوافق مع أهله ومجتمعه وحتى قومه في بعض الأفكار التي تعلقت أساسا بمواقف تخص علاقته براشيل.

يمكن إجمال القول في أن صنع هذه الشخصيات لم يكن على سبيل العبث، فقد وجدنا أن السياق الذي ضمنت لنا فيه هذه الاحداث يذهب بنا نحو ضرورة النظر إلى الآخر بعقلانية، من خلال إيراد

حجج منطقية مع الشخصيات التي تدعو إلى هذا الموقف، أما النظرة التدنيسية والتقديسية، فقد مثلتها بشخصيات تتسم بالبساطة في التركيب المجتمعي، مع دعم آرائها بحجج تستند في معظمها للعصبية الدينية، أو القومية، أو السياسية أو الاجتماعية، وهذا في غالب الأحيان.

3. الآخر بعيون بومدين بلكبير في "خرافة الرجل القوي":

دائما ما يرسم كل روائي طريقا لشخصياته، كي يمرر عبرهم رسائل محاكة مسبقا، أو يبث ضمنها أفكارا يؤمن بها، ولأن العمل الأدبي يفرض عليه شروطا تقيده وتجعله يبحث عن سبل غير مباشرة للتعبير عن مراده، مع الحفاظ على المسافة الجمالية التي تمنح للعمل الأدبي قيمته التي تجعل منه ذا قيمة أدبية، هذا ما سنكشف عليه في النموذج الثاني الذي سنحاول قراءة دور شخصياته في تحريك الفعل التفاعلي بين الأنا والآخر.

وظف بومدين بلكبير الشخصيات لخدمة توجهه الإيديولوجي الذي يصور الآخر في مجمله وفق منظور الرواية الحضارية التي عمدت إلى تصوير الآخر في ثوب العدو والمستعمر" لم يتوقف خطاب الرواية العربية حول الآخر، فقط، عند تلك الدلالة التي غالبا ما ترددت في كتابات النقاد والدارسين: ألا وهي اعتبار الآخر ذلك النقيض المستعمر الذي يتحمل مسؤولية كبيرة فيما لحق الكثير من المجتمعات العربية من تخلف وصراع سياسي وإداري" (إدريس، 2012، صفحة 162) نجد هذا التوجه مجسدا بشكل مباشر في النموذج المدروس، حيث نجده وظف الشخصيات الروائية ضمن نسق جمالي سردي، يخدم توجهه الفكري، حيث استعملها لرسم العلاقة الضدية منطلقا من الاحتكاك المباشر مع الغرب، لأن نسبة كبيرة من الأحداث التي جرت في الرواية كان مسرحها دول غربية، وهذا يجعل من المواقف المتخذة نحو هذا الآخر تتسم بنوع من المصداقية، باعتبار من مُرِرت عبرهم هذه الرسائل قد عاشوا مع الغربي، وتقاسموا معه الوطن، وعرفوا كيف ينظر هذا الغربي للمهاجر الجزائري، وفي غالب الأحيان فإن التصوير الذي يصدر من الأنا في هذه الرواية يأتي كردة فعل لما يعايشه، وقد لجأ بومدين بلكبير في هذه الرواية إلى جعل شخصياته تتحاور على جميع الأصعدة لغرض جمالي، وليجعل الشخصيات تحتك ببعضها البعض فـ" الرواية العربية لم تعبر عن هذه المواقف بطريقة تقريرية ومباشرة، وإنما بوعي جمالي يدرك مقتضيات الصنعة السردية ويتفنن في استثمارها، حيث البناء الحواري والمتعدد الأصوات يسمح للروائي باستدراج التعددية اللغوية والثقافية التي هي في صلب العلاقة مع الآخر" (إدريس، 2012، صفحة 164) لا تحيد الرواية التي بين أيدينا عن هذه التعددية في الأصوات، إذ نجده استعمل الحوارية بين الشخصيات، بغرض منح الفرصة للبوح لكل الأطياف والأنواع، لتعبر عن رأيها بعيدا عن قمع الأصوات وهيمنة الصوت الواحد.

بالرجوع للرواية نحدد الشخصيات التي وظفها بومدين بلكبير في بلورة النظرة العامة للآخر، ونبدأ بجواد البطل الذي جعله يعيش في ثلاث دول مختلفة ترتبط كل واحدة منها بجانب من جوانب حياته فأصله جزائري، من مدينة قسنطينة، ويسكن في باريس الفرنسية، وعمله بمدينة شارلوروا البلجيكية، وزوجته نور التي تماثله في كونها من أب روماني وأم جزائرية، ومن أهم الشخصيات التي تحرك أحداث القصة من مدينة لأخرى، شخصية سمير زهري، الذي يشترك مع البطل جواد في لقب الأسرة، هذا الأخير الذي جعله يلتقي بمجموعة من الشخصيات، على غرار عدنان عبد اللاوي الرعية المغربي الذي يعيش في فرنسا، نجد كذلك شخصية مارسيل وابنه باتريك، بالإضافة إلى شخصيات أخرى يمكن إغفالها في هذه الدراسة، والتركيز على الشخصيات المذكورة سابقا، باعتبارها تجسد المطلوب، وهو رسم الصورة النمطية للآخر، وتوصيفه للقارئ وفق المنظور الذي سيأتي عرضه وبيانه.

يمثل الروائي في هذا النموذج (الآخر) في عدة وضعيات، لكنها في خدمة غرض واحد وهو رسم صورة تخدم النظرة الضدية التي يريد تكريسها في مجمل تفاصيل الرواية، إذ نجد جواد يصرح بعداوة مارسيل له فيقول:" كما أنني لن أترك أي فرصة سانحة لمارسيل ماسان الحاقد وابنه باتريك الأبله اللذين يتربصان بي الدوائر، فهما يتصيدان أي زلة أو هفوة مني لكي يوظفانها ضدي" (بومدين، 2016، صفحة 22) يبرز الروائي هنا مباشرة دور هذه الشخصية في الرواية والذي يتمثل في إبراز النظرة التي يصورها الغربي للجزائري، وهي تظهر ذلك الحقد الذي سيبنى على ضوئه التصوير المعاكس، فبومدين بلكبير هنا ينطلق من فكرة: من ينظر إلي بازدراء واستصغار لا يمكن أن أصوره بشكل معتدل أو سَوِيٍ، لأن هذه النظرة بمثابة رد فعل، أو فعل مضاد لما بدر عن مارسيل الرجل الغربي الذي يكن الحقد لجواد، وهذا ما يبرزه في مشهد آخر، حيث يورد على لسان هذا الاخير قوله:" ماذا يأتينا من العرب غير الإجرام!؟ فهؤلاء المهاجرون نمنحهم الحرية والحقوق التي لا يحلمون بها في بلدانهم البائسة، ثم يكافؤوننا بالتفجيرات الإرهابية أو بالانحراف والإجرام" (بومدين، 2016، صفحة 26) أورد هذا القول بعد أن كان جواد في اجتماع عمل مع مارسيل، وقام مارسيل برمي الجريدة التي تحمل خبر اغتيال مجموعة من الشباب لمروج الكوكايين سمير زهري الذي يحمل نفس لقب جواد، الأمر الذي جعله يتأثر بما يقوله مارسيل، ويذهب للبحث في أصول سمير زهري.

تكرس هذه الرواية تمثيل الآخر الغربي في صورته المشوهة من كل الجوانب، وذلك على اختلاف الشخصيات التي تمثلها، وزاوية النظر التي تتخذها، لكنها في معظمها تنطلق من اتخاذ الآخر عدوا وجب أخذ الحيطة والحذر عند الاحتكاك به، أو التعامل معه فـ"صور الآخر السائدة في النزاع العرقي هي ثلاثة. وهي تتناسب مع استراتيجيات العمل النزاعي فأما الإستراتيجيا الأولى فأطلقنا عليها سمة الرفض والطرد،

وتتخذ مشروعيتها شكل صورة سلبية عن الآخر" (لبيب، 1999، صفحة 600) نجد هذه الإستراتيجيا مجسدة بشكل واضح لدى شخصيات هذه الرواية، فالكل ينطلق من جعل الآخر عدوا له ويحاول أن يكيد له، ويربط كل نكساته وخيباته به، حتى تشكلت لدى الفرد الجزائري نظرية المؤامرة، إذ أنه يرجع كل نكسة تصيبه، أو أي حدث داخلي، إلى مؤامرة خارجية تهدف إلى الإطاحة بكل ما هو جزائري.

يستمر بومدين بلكبير في استعمال الشخصيات في نفس الاتجاه، إذ نجده يُدخل شخصية أخرى وهو عدنان عبد اللاوي الرعية المغربي الذي كان صديقا لسمير زهري الذي تم اغتياله في شوارع فرنسا من قبل مروجي المخدرات، ويورد حوارا له مع جواد يصرح فيه: "بلاد الكفار يا أخي، لم يكفهم عهرهم، فزادوا غلًبوا علينا نساءنا، وبتنا لا نتحكم فيهن! إنهم لا يحبوننا يمقتوننا، لا يحبون العرب، لا يحبون الإسلام" (بومدين، 2016، الصفحات 37-38) يُرجع عدنان عبد اللاوي حتى مشاكله مع زوجته إلى الآخر الغربي، فهو يقول بأن زوجته لم تكن ترفض طلبا، وكانت تتدثر بعباءة الطاعة، لكنها بعد احتكاكها مع الغربيات، فسدت أخلاقها ودخلتها أفكار التحرر والخروج عن الطاعة، ومعاملة الرجل بندية، ورفع صوتها في وجه زوجها، تجسد هذه الأفكار مسألة الصراع الذي خرج عن كونه صراعا يحدث بين أقطاب الدول، فقد تجاوزه إلى التغلغل في الحراك الجمعي الذي يسود المجتمع، فقد" كانت هذه الصراعات داخل الحضارة الغربية بالدرجة الأولى، ولكن مع نهاية الحرب الباردة خرجت السياسة الدولية عن طورها الغربي وحصل التفاعل بين الغرب والحضارات غير الغربية" (المحمداوي، 2019، صفحة 81) يظهر جليا هذا الصراع في مجمل أحداث الرواية، فقد كان الآخر الغربي يرجع الجرائم التي تحدث في فرنسا إلى المهاجرين العرب، الذين تركوا أرضهم، وسكنوا أوطان غيرهم وعاثوا فيها فسادا، فهو يصورهم على أنهم تجار مخدرات، وقطاع طرق، وهذا منافٍ للواقع تماما، أما العربي المهاجر فهو ينظر للغربي على أنه يستغله ولا يعطيه حقه، ويتعامل معه بحذر رغم أنه يتشارك معه الوطن نفسه، ويتقاسم معه نفس الوظيفة، فجواد مثلا يعمل في شركة فرنسية ويشغل منصبا مرموقا، وقد تزوج من نور ذات الأصول الرومانية، هذا ما يدل على أنه محتك بالآخر الغربي جيدا، خاصة ذلك الآخر المتمثل في زوجته، التي يعيش معها في سلام في معظم أحداث الرواية، وهذا مرده إلى أن زوجته رغم أصولها الرومانية إلا أنها تحمل الدم الجزائري باعتبار أن أمها جزائرية.

كل الشخصيات التي تطرقنا إليها هي شخصيات تعيش في الغرب، إما فرنسا، أو بلجيكا، أو رومانيا، ورغم أن أصولهم تختلف، فجواد جزائري، وعدنان عبد اللاوي مغربي، ونور رومانية، ومارسيل فرنسي، فقد لاحظنا أنهم يشتركون دائما في نفس النظرة التي ترى بتجريم الآخر وتبحث له دائما عن عيوب لتبرر فعلا أو تحمله مسؤولية فشلها في مختلف المجالات، فكل يرى الآخر على أنه العدو الذي

يتربص به الدوائر، أما الشخصيات التي التقاها جواد بعد عودته إلى أرض الوطن باحثا عن هوية سمير زهري، الذي وُجد مقتولا في شوارع فرنسا، فنجد عمه الذي جمعته به حوارات عديدة، وكان في المجمل يتذمر من الواقع الذي آلت إليه البلاد ويكيل التُهم لأبناء الوطن من الخونة، والحكام الذين ساروا بالبلد نحو التخلف، الأمر الذي ساهم في إمعان الآخر الغربي في احتقاره لنا كعرب جزائريين، فقد قال في إحدى حواراته مع جواد:" ...أخبرته أننا في بلد، يُمجَد فيه الأموات، ويداس فيه على كرامة الأحياء. لا يحبون من يخرج عن السرب، لا يحبون من يتكلم بغير لغتهم، لا يحبون الرجل، يحبون المتزلفين، والقوادين، والمنافقين، والطحاحنة، والرخاس، وآكلي الجيفة" (بومدين، 2016، صفحة 69) هذه الأفكار التي أصبحت منتشرة في أوساط الجزائريين غداة الاستقلال هي نتيجة حتمية لما كان يحدث من سوء تسير، وانتشار أفكار انتهازية من قبل السلطة الحاكمة، وانتهاج استراتيجيات اقتصادية فاشلة، كل هذا ألقى بظلاله على الفرد الجزائري الذي أصبح يرى نفسه مقموعا، كل هذا ينعكس عليه في ربط علاقاته مع الآخر، لأننا مهما حاولنا فلا يمكن لنا أن نرى غيرنا إلا مما ينبع من ذواتنا، كل هذه التبعات كانت نتاجا لفترة عانى فيها الجزائريون من الاستعمار، لذا فالروائي هنا يصبو إلى الوصول بالقارئ إلى بناء الصورة المدنسة للآخر من منطلق تفكيك الخطاب الثقافي لدى الجزائريين أنفسهم، ويدخل هذا ضمن أسئلة ما بعد الاستعمار التي طرحتها الرواية الجزائرية في تلك الفترة فقد كانت" تسعى إلى الاقتراب من قضايا ثقافية عديدة تتصل بالتاريخ والهوية وثنائية الأنا والآخر في سياق ما بعد الكولونيالية، وقراءة الكيفية التي تناولت بها النصوص الروائية المعاصرة هذه القضايا وقامت بتمثيلها وإنتاج صور بصددها، والوقوف على أبعادها ودلالاتها الثقافية وما بعد الكولونيالية **(post-colonialisme)**" (إدريس، 2012، صفحة 38) سعى الروائيون الجزائريون إلى زرع الوعي من خلال أعمالهم الروائية، في حركة سادت فيها المقاومة الثقافية، والتي حمل لواءها المثقفون، والأدباء، كانت هذه الحركة تنطلق في مجملها من تجريم الآخر الغربي، باعتبارها ظهرت في فترة ما بعد المقاومة.

الملاحظ في هذه الأعمال الأدبية أنها تبني خطابها على تدنيس الآخر وإقصائه بشكل مبالغ فيه لأن الذي يكون في حالة مقاومة ودفاع، يصنع لنفسه دروعا ثقافية تعطي له الدافع للكتابة، والمقبولية لدى المتلقي، لأن هذه الدوافع الخفية تبدو لدى القارئ وكأنها حجج مقنعة تعطيه الحق في احتقار الآخر والنظر إليه بعين العدو، على الرغم من أننا لا يمكن أن ننكر وجود تعالٍ من الآخر الغربي، أو علاقة ثقافية متوترة بين الشرق والغرب في كل الأزمنة، إلا أننا يمكن أن نفكك الخطاب الروائي الذي يتسم في مجمله بالمبالغة والإغراق في التشويه، وهذا من باب نقد الذات لأننا لا يمكن أن نصل إلى تشخيص دقيق لمشاكلنا الحضارية على وجه الخصوص، إلا إذا انطلقنا من قواعد معرفية رصينة، و" تنعكس هذه

العنصريات مباشرة على الانتاج الثقافي والأعمال الأدبية والفنية، أي أن العنصرية وإقصاء الآخر هو الشعور الذي لا يمكن للنصوص إخفاءه مهما كانت عظمة هذه الأعمال، حسب فوكو وإدوارد سعيد، فإن عظمة الأعمال الأدبية لم تعصمها أبدا من السقوط الأخلاقي، بل فضحت قوة تغلغل السلطة في الذات المبدعة ومدى اختراقها للمثقف" (مهنانة، 2014، صفحة 109).

المتمعن في هذه الرواية يتلمس جمالية الشخصيات المتحركة فيها، وطريقة توظيفها وصفاتها المنبثقة من وحي الواقع، ما يضفي عليها طابع المقبولية لدى القارئ، هذا ما يجعل تأثيرها بالغا في توجيهه نحو الفكرة التي يصبو إليها الروائي، هذه الفكرة التي أراد لها أن تكون مبنية على وضع الجزائري في نقاط تماس واحتكاك مع الغربي(الآخر)، وعلى النقد الحاد للثقافة العربية، والوضع السائد في العالم الشرقي ومقارنته بالوضع الذي يعيشه الآخر الغربي، وهو بهذا يستدرجنا نحو رسم الصورة السلبية على الآخر انطلاقا من الاحتكاك به وصولا إلى تحميله مسؤولية ما يحدث في الداخل، وما وصلت إليه الجزائر على كل المستويات.

4. خاتمة:

يمكن إجمال القول في أن كل من زهور ونيسي، وبومدين بلكبير قد استطاع تمرير الصورة التي أراد لها أن ترسخ في ذهن المتلقي، وقد وجدنا أن الأولى كانت أكثر اتزانا في التَّثميل، حيث اتخذت من العقل والمنطق وسيلة لإثبات أننا يجب أن نتخلص من الدونية في تصويرنا للآخر، وأن لا نبحث عن مبررات لفشلنا، وأن لا نحمل الآخر مسؤولية ما نصل إليه جراء ما نقوم به من سياسات فاشلة، أما بومدين بلكبير فقد أراد ترسيخ فكرة العداوة في بناء العلاقات مع الآخر، من خلال إبراز سلبياته والتركيز عليها، ونلخص المسار الذي انتهجه كلاهما في الإقناع فيما يلي:

1. قامت زهور ونيسي بتوزيع الأدوار على الشخصيات، وحمّلت كل شخصية مسؤولية تمرير صورة معينة، سواء سلبية أو إيجابية، أو معتدلة عن الآخر، وكان تركيزها منصبا على هذه الشخصيات في غالب الأحيان.
2. توصلنا لكشف وجهة نظر الروائية من خلال بيان الحجج التي ضمنتها كل شخصية، وهذا كان على اعتبار تقييمنا للحجج التي دعّمت بها هذه الشخصيات، فقد منحت الشخصيات المقنعة دور إيصال الفكرة المرغوبة من قِبَلها.
3. كان منحها الكلمة للشخصيات التي تدنس الآخر بغرض التنفير منها وخدمة، وجهة النظر المعاكسة لهذه الرؤية.

4. ركز بومدين بلكبير في توظيف شخصياته على عقد القران بين الشخصية والفضاء المكاني الذي تتحرك فيه.
5. أراد إقناع القارئ بوجهة نظره التي ترمي إلى تجريم وتدنيس الآخر، من خلال وضع الأنا في فضاءات مكانية مختلفة، وجعلها تحتك بالآخر مباشرة.
6. استعمل كل منهما الأنساق الدينية، والاجتماعية، والقومية، مُنطَلَقا لتحريك الأحداث، وتمرير الرسائل المراد بثُّها في نفسية القارئ.

قائمة المراجع:

إسماعيل مهنانة. (2014). *العرب ومسألة الاختلاف، مآزق الهوية والأصل والنسيان*. لبنان، المغرب، الجزائر: منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف.

الخضراوي إدريس. (2012). *الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار*. القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.

الطاهر لبيب. (1999). *صورة الآخر ناظرا ومنظورا إليه*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

بلكبير بومدين. (2016). *خرافة الرجل القوي*. لبنان، الجزائر: دار ضفاف، منشورات الاختلاف.

بن بوعزيز وحيد. (2018). *جدل الثقافة*. الجزائر: دار ميم للنشر.

تزفيتان تودوروف، ميخايل باختين ترجمة فخري صالح. (1996). *المبدأ الحواري* . بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

زهور ونيسي. (2007). *جسر للبوح وآخر للحنين*. الجزائر: الطباعة العصرية.

عبد العزيز ركح. (2011). *ما بعد الدولة، الأمة عند يورغن هابرماس* . الجزائر، المغرب: منشورات الاختلاف، دار الأمان .

عبد الملك مرتاض. (1998). *في نظرية الرواية*. الجزائر: عالم المعرفة .

علي عبود المحمداوي. (2019). *خطاب الهويات الحضارية من الصدام إلى التسامح*. لبنان، الجزائر، المغرب: منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، دار الأمان.

غنيمي هلال محمد. (1997). *النقد الأدبي الحديث*. القاهرة: دار نهضة مصر.

ماجدة حمود. (2010). *الآخر في التراث العربي* . بيروت، الجزائر: الدار العربية ناشرون، منشورات الاختلاف .

محمد عبد الله دراز. (2006). *بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان* . مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.